

لم أتمدد يوماً على سكة قطار

أحمد باشا



لم أتمدّد يوماً على سكة قطار

أحمد باشا

لم أتمدد يوماً على سكة قطار

سلسلة شهادات سورية -6- لم أتمدّد يوماً على سكة قطار
أحمد باشا

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: (eye and i)، ولاء دكاك
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى - 2014

ISBN: 978-9953-583-46-4

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا
الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو،
أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو
بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماتاً.

التوزيع:

أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا - بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت - لبنان
هاتف: +961 1 750054
فاكس: +961 1 750053
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الناشر:

بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق - الجمهورية العربية السورية
هاتف: +961 78840213
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

لم أتمدّد يوماً على سكة قطار

(نصوص 2011 - 2012)

7 _____ مقدمة لا بدّ منها

15 _____ إعتام

55 _____ رصاصات طائشة

مقدمة لا بدّ منها

«مونولوجات باردة»

- 1 -

المدن المحاصرة تهزم في داخلنا فقط، ونحن من يجبرها أيضاً على الانتصار.

المنفردة توحى لك بالكثير من الأفكار الجهنمية، كأن تحفر الجدران بأنفاسك، وتركض، أو أن يأتي جلاّدٌ تحلّ عليه الشفقة ويجلس مكانك، يهيك مفاتيح السجن من دون أي مبرر درامي أو منطقي حتى. بهذه الطريقة تُحرّر المدن المحاصرة.

هكذا يُنتظر الموت في المنفردة دون ملل. هل من تحريرٍ جديد؟ أسمعُ وقع خطى سائرة نحو منفردتي، هل يحق لي أن أبتسم مثلكم لخشخشة المفاتيح الحديدية؟

- 2 -

لفتاةٍ أتعبتها الحكاية..

الفتاة التي كانت تنتظر ما يشبه «صاحب الظل الطويل»، سارت في أزقة دمشق مراراً، قدمها الصغيرتان كانتا تشعران بحنين الحجر الصلب، فترسم.

كراس صغير للرسم ودفتر للعالم الآخر الذي كانت تصنعه، لم تتم يوماً قبل أن تتقذ جميع البشر بدموعها، كانت تحزن لأجلهم، الزمن كان خديعةً، هكذا سمعت يوماً جدتها العجوز تقول، لذلك تركت تلك المسافة مع نفسها ليكتب فيها غريبٌ مجهول.

هذا الرجل لم يكن غريباً لأن الكلمة كانت تجعلها ترقص، تحلم، تعرف نفسها، لم تكن «أسيرة الكلمات» كما قال لها يوماً، بل كانت أسيرة تلك المسافة، مسافة بين زمنين، بين كوكبين.

ها هي ذي تبتسم من جديد، لأنها ما زالت تحلم بأن البشر سيمرّون مثلها عبر تلك المسافة.

بأن البشر لن يموتوا أبداً.

- 3 -

في «الكراج» لم أعد أرى الأطفال ماسحي الأحذية، بأتعي اليانصيب، مصطنعي العاهات، العاهرات الرخيصات. في «الكراج» أحنُّ إلى الطعام الملوث والبسكويت الرخيص... أحنُّ إلى طفل متسول يتشبث بقميصي وبظهر أمه أيضاً.

أذني افتقدت لحن الضجيج فجأة، والأغاني الهابطة وشتائم العسكر المحفظين بأخر خمس ليرات في جيوبهم.

قدمي لم تعد تتلوث في الوحل والأوساخ وسجائر السائق العصبي، ولا حتى بكلمات المعاون البذيئة، أو شاشة التلفاز الصغيرة.

أشتاق إلى رائحة العرق، والعضن، وزيت المحرك، وصعود الركاب على الطريق.

تغريني كيفية كتابتي لهويتي بتفاصيل خلبية في دفتر الأثري.

في «الكراج» حوصرت الذاكرة بسور حجري مرتفع،
بدأت الإصلاحات، الإصلاحات...
«الكراج» دشنوه...
أعلنوه مقبرة...
وساد الصمت.

- 4 -

وماتوا ورائحة الخبز تفوح منهم... ماتوا باسمين.
حلفايا! تشتهر بـ «الطرطورة» المزيّنة، التي يشغل معظم سكانها في
بيع المؤونة لمعظم الريف الحموي. هذا ما أتذكره بالضبط. وجه «أبو
محمد» الرجل الأسمر الأربعيني، أعرف رائحة التوابل التي تتبعث من
كفّيه، أشمّها في هذه اللحظة...
لن أنسى شكل «الطرطورة» الأسطورية التي طالما سحرتني زينتها...
التي طالما أطلق عليها «طرطورة الثورة»، فقد كانت تتوسط ساحة العاصي،
وكانت حنجرة القاشوش مزيّنة مثلها تماماً، طربي كطفل يحدّق من النافذة
عندما كانت تمرّ عروس أبو محمد «الطرطورة»، هو نفسه عندما سمعت
القاشوش الذي دائماً تخيلته يمسك بقوة بإحدى عوارضها الملونة...
حلفايا! قدمي تتذكران تماماً أرضية الملعب الخشنة، عندما كنا
نذهب لنلعب مباراة لكرة القدم مع فريقهم، أحذيتهم الجلدية كانت
مثل جلد أيديهم، دافئة وخشنة، تحفزهم على الركض والانتصار علينا
في كل مرة. بجبهاتهم الخشنة ترى ابتسامة فرحة، عندما يقدمون، بين
الشوطين، «شعبيية» لكل لاعب منا. خساراتنا كانت دائماً فائقة الحلاوة.
حلفايا

الخسارة
الأرضية الخشنة
الموت المرّين.
حلفايا!
كلايية أبو محمد الرمادية
المؤونة...
المؤونة
رائحة التوابل المنبعثة من العظام
هل ستستسع عروسك يا أبو محمد لكل هذا الموت
والخبز؟

- 5 -

حملت حقائبى ومشيت، نساء الحي حول جثمان أبي، وشيخ نصّاب في
صدر المنزل.
لم أكن أعرف أنني لن أراه بعدئذ، أطرافه باردة، حدقتان متوسعتان،
أختاي الصغيرتان تلعبان عند قدميه، تعالت أصوات الجميع، ضجيج،
ضجيج. مصياف - النيك - دمشق، هذا ما حصل بالضبط.
يا أنت! افتح النافذة لو سمحت!
هل دخلنا الأراضي اللبنانية؟

- 6 -

لم أتمدد يوماً على سكة القطار... لكنني شعرتُ بأنّي قد فعلتُ ذلك
مراراً، كان صوت الصافرة قوياً جداً، إلى درجة أنني لم أشعر بالموت.

علبة تبغ، جثة مجهولة الهوية، فدية، محرك باص، اختناق مروري،
عبوة ناسفة، عاشق عابر، بزة عسكري، قهوة من دون رائحة، في الجزيرة
السورية ثمة جزرٌ، بسطات عقول في سوق الحرامية، دمشق وغيرها،
حوادث خطف لن تنتهي.

أقف هنا، أقف هناك، ثياب ممزقة، بسرعة، قبلها أنت، أنا سأضغط
على الزناد، المسدس فارغ... لا رصاصات، ركضت وراءها، تصرخ بقوة،
يعلو الصوت أكثر.

قل لها بأن تخرس، بازار للخيانة، اصفعها أنت، لا أنا، أضعتَ يدك،
المسدس فارغ.

موت.

إعتام

رسائل إلى جندي

- 1 -

رصاصة واحدة تكفي

- 2 -

المدينة فارغة تماماً
وأنا أسير على حافة السور المرتفع
معصوب العينين

- 3 -

تمام مع بندقيتك
ماذا عن زوجتك؟

- 4 -

على مطفأة الحرائق كتب:
ماء للحريق

- 5 -

أطلق الرصاص إلى السماء عالياً
لن تصيب طائراً
أو حنجرة.

- 6 -

وحدها الشفاه القادرة على الهتاف، قادرة على القبل.

- 7 -

مذ أول قتيل
نظرنا طويلاً إلى الأعلى
منذ أول قتيل
فقدت الجهات جهاتها

- 8 -

هل يميز القناص بين ضحية وأخرى؟
لا
عمّ يبحث إذ أ؟
عن قلب

- 9 -

ظلك
مترك
متى حملت السلاح،
حملة.

- 10 -

السوريون لا يكتبون تاريخهم
إنهم يرتلونهم

- 11 -

سقف الوطن

يرشح دماً

- 12 -

يوماً ما

سيستيقظ أطفال الغوطة!

مجاز لقاتل

تمتلكني رغبةٌ
فأقتل ظليّ عناقاً
أنتعلُ لساني وأسير وحلاً
يداي جسراً أو مجازاً لقاتل
غاب شبيهي عني
صارت أصابعي ضحيةً مطلقةً
رحمٌ دافئةٌ لفظتني
لأكتسب البشاعة رويداً رويداً

أيها السلاح
أبعد يد البشريّ عنك
تمرّغ في حقدني
وأطلق النار على قدمي
ظننت ذلك التابع لي
رفعت مديتي... واقتربت أكثر
صرت مثلي
لا ملامح
فلتحرق بصماتي

أثر الجريمة دمعي
الأرض تُريني نفسي كغبار داكن
ليس لك الآن منك سوى لي
ذلك الجسد الكريه أتركه هباءً
ذلك الخفقان الدائم
يزيد من الهوة بيني وبين المعنى

دعك من كل ما لي... وما ليس لي
واسكّني كقبر...
تبعثر فيه
مقبرة صرّت دون جسدي
هويّتي وجدتها بينك وبين ذلك القاتل
هويّتي هوية قاتل
قتل ظلّه فأردى جسده بعيداً
عن سلام المقابر.

ذاك الطريق

على الطريق
ثمة موت من نوع آخر
أحياء يمشون على جوانبه
كي لا يموتوا فرادى
وأم لا تصدق موت أولادها
فتتجسس بطنها
تتبع أثر أقدامهم الصغيرة
تتلمس ثدييها
ليقول لها الطريق:
أيّهم؟

على الطريق
أقدام تسير دون أصحابها
تبتعد...
تعانق نفسها
وظلال غيرنا
تحجبنا
ويبقى الأفق خاوياً

دون ضوء

أو عيون

على الطريق

أعمدة للإنارة

وماضٍ تعب من ماضيه

فصار حاضراً

فكأن الجدة

روت لأحفادها

حكايها القادمين

السماء فوق ذلك الطريق

لم تخفِ وطناً تحتها

ولا عالماً من النفايات

كلُّ ما تبقى

جثة لهرة عرجاء

وقرط مزيف

كانت قد رمته بالأمس

عاهرة طاعنة بالطريق

رحلوا

تركوا خلفهم بيوتاً

وحكايَا، أُغَلقتُ أبوابها
غادروا كالغيم، كالماء
دون أقدامهم
كيفما تلفتوا
لا ظلال

أبناءؤهم لا ينظرون إليهم
يسيرون خلفهم فقط
فصوت الخطى انتماء أخير

الحنين عندهم
يصفونه بما لا يفهمون
برائحة خبز بلادهم
بصوت المؤذن وهم عائدون سكارى آخر الليل
مشاجرات جيرانهم
يحتون إليها أيضاً
كما تفضحهم عيونهم
بشبق القطط على الحاويات في حاراتهم

هناك الآن
حيث هم
في اللامكان

يجرّبون الوحدة
يسترقون السمع خلسة
إلى صوت الريح في بيوتهم
علّهم
يسمعون صوتهم من جديد

على الطريق:
هوية البياسي، والجسر المعلق، والمآذن، والسموات أيضاً كُسرِت،
جندي داس بقدميه على الظل
ثوب أمّ لُطخ بالحنين
على الطريق: أقدامنا، أعيننا
لغات قديمة وحديثة، فرح، اغتراب، طرب، طفل، رقص، سخط
ذاكرات ملونة
على الطريق رصاصات فارغة

على الطريق
عميانٌ، مثلنا
كلما نظروا في المرأة
وجدوا غيرهم

خذوا الحكمة من أفواه الصراصير

فراشٌ منزوٍ في زاوية الكون
صرصار كهل يتفرد بساحة الغرفة
ضجيج للضوء خارج نافذتي المغلقة
نشاز العابرين
أستقلّ باصاً
لا أبالي بقصة شعري الاعتبارية
وهندامي الفوضوي
أقرأ مقطعاً من السيمفونية التاسعة
إشارة المرور تعلن سفري
فأمتلك أذان الرجل الأصم
وحقده على سخرية الكون
ما زال هناك وقت للنحيب
راقصة ظلت دون أن تجتث ثدييها
أحتاج إلى الكثير من العدم
استرخاء في براد الجثث
أو استئصال الأظافر من قدميها
ومن عيني
صديقي يتسلل بهدوء إلى الحاوية
يجمع ما تبقى من النفايات

من أجسادنا

وبقاياهم

يا أبت تقاعدت فجأة من ثوب أمي

ما مات الشقي احترافاً بسجائره

ما مات الشقي اختناقاً

برائحة طعامه الشهوي

أحذية تقعات على بقايا أقدامنا

وأعناقنا

حببتي تنقب في كهوف الرومان عن قضيب ذكري

ليرضي العنف في شهوتها

ما مات الشقي

إلا بكأس العرق الرخيص

فالبياض هو قسوة الفقراء

انعتاقهم

صبرهم

إجهاض زوجاتهم اليومي

ما مات الشقي إلا والفرح بعينه

ما مات الشقي إلا اغتراباً في وسادته

ما مات إلا وإلا وإلا

يخطف الصرصار قلبي

يزين وسط الجدار الأبكم
ويكتب
ما مات الشقي إلا حالماً
بكفنه الوطني

أقدام حافية تحت المطر

في غفلة عن الكلام وُجدنا
لم يعرف أهلنا ما سرُّ البراري؟
ما حجم الصحارى البيض في داخلنا
النخلة التي كانت تكسر رتابة الصحراء
اقتلعت من جذورها
غصت السماء بأغانينا
علّمتنا نحن «حراس الوهم»
أن لا نبحث عن ذواتنا في الرمال
فالرمال تخفي حيناً، تخبئ دفاً من ماتوا تائهيين
تخبئ موتنا الذي لم نبج به بعد
تتركنا نسير على حطام ذواكرنا
نستلذّ بوقع أقدام الإبل
بقرع الحقيقة لجدراننا
فالفاتاة التي أحببتها أنتِ
وأحبّتك أيضاً كانت أنا
هجرت نفسها
لتبقى الصحراء وحيدة
لتكون ظل السماء
ومراتها

تفضحني عيني بتلوّنها
كما لو أنني أكذب أمام أمي
أسألُ ذاكرتي
أستجوب أبناء الحي
هل حقاً مات صاحب عربة السندويش؟
هل أخفت القذائف أثر قدميَّ الصغيرتين
وذاك الطفل، هل أفضى سرّ رسومي أمام الجند الغريباء؟
أمام جحافل العسكر اختبأتُ وراء العربة
ما زلت أشمّ رائحة الطعام من أخشابها المهترئة
ثابتة تلك العربة... مثلي
لكن عجالاتها
ما زالت تسير في الذاكرة

على عجلٍ
قبل أن أحضَرَ قهوتي
أكمل رسم صورة الخراب
أجعلها أجمل، يشاركني كل أطفال الحي برسمها
يعلو صوت البائع المتجول
أحاول أن أتبع الصوت
فأكتشف أنني تأخرت عن عملي
وفي كل مرة أعدُّ فضولي:
سأكملها غداً

في القارة البعيدة لا يهمني كثيراً شأن من أحببت أنا
كيف أضحي ملمس بشرتهم
ولا أنشغل بالسؤال أبداً عن رائحة آباط أطفالهم
أرّبي الذكريات وحيدة، بعيداً عن قسوة الزوج القديم
وعن إلحاح الجميع عن معرفة أحوال عالمي
العالم الذي طالما رسمته وحيدة
لا يعنيني اليوم أبداً لا يهمني أن أبدو سعيدة أمام أحدٍ
ففي كل حكاية من هذا الكون أجد نفسي
في المسافة بيني وبين روعي ثمة لحن غريب...
ثمة وقع كلمات
لا تشبه أبداً غزل أبي
ولكنني أشعر بمتعة التلصص ذاتها
كما كنت أفعل آخر الليل
الصوتُ رسمٌ
همهاتُ رجلٍ غريبٍ
كلما سمعته، خِلْتُ نفسي امرأةً وحيدة
تسيرُ، ترقصُ بأقدامٍ حافيةٍ
تحت المطر

خيال مسكون بالرصاص

السماء الصافية حد الأرق
تكبير مثلنا
تأخذ من سني عمرنا
كما لو أنها ظلّ للماء الذي سرنا عليه يوماً
ويبقى صمّتُ أهلنا
وخوفهم
من توحد نبض ذواكرنا مع صوت الماء

صخب الطائرات جعل من أرواحنا سماءً بعيدة
سكنها الغيب
وصار كل من نشتاقتهم عنوةً، أهلها

الحكاية دلت أبطالها
فما كان لأجسادنا، إلا أن تعانق نفسها
أن تشتم النهايات السعيدة
هكذا صرنا يا أمي
نتوسلُ اللحظة

لتمضي
هكذا صار رغييف الخبز بارداً
علّمتنا أقدامنا:
المشي في أرض موحلة، يلطخ جبيننا فقط
هكذا صارت أعيننا يا أمي:
أثر أقدام سارت على الماء
لم تر فوقها طائراً
ولا تراباً تحتها
هكذا باتت أعيننا
«رصاصات فارغة، تشغلُّ هذا الفراغ».

كي لا أنتمي

كي لا أنتمي
أجالسها
أتأمل بحاراً من النبيذ
قامتها قصيرة
أقل من السماء بقليل
أرى في بياض عينيها فيضاً من الذاكرة
غزلاًناً تشرب الماء
قصة عجوز عاشق لسروة وفية
أغاني الأب المريض
وأثاره على شعر النساء
أغوص في البياض أكثر
لأجد وطناً حالماً
لأحاكي أخاً طائشاً
أراد الغربة
فتشبت بقدمه أكثر

كي لا أنتمي مرة أخرى
.. أثبت نظري ثانية

لأجد ألواناً أخرى للبياض
مساحات للرقص
تغريني الشفة العليا
تشدني مدفأة الحطب
والبيت القديم
القابع بين قسوة حضنها وغرور البحر

يضجّ بي اللا انتماء
أحرك ببؤ عيني قليلاً
فأسمع موسيقاها الهادئة
أنتمي إلى مفردات المذبحة
أرتل للشئات... وأقدّسه أكثر
أحاول خاسراً
أن أثبت نظري قليلاً في بياض عينيها
لكن لا فائدة
السواد يحتلني
ثابت في داخلي
أغلق عينيّ الصغيرتين لمئات السنين
أقترب منها
أسترق قبلة
وألوذ بالفرار مع أنفاسها
مع قوس قزح الممتد
من رمشها إلى أقصى أقاصي البحر
والجنون.

هكذا موتي

غروب يكبر جدتي بقليل
بينما أغتسل بالوحد
تنثور الروح على عبثي
تملؤني بالهتافات
تكاد تمزق رأسي
ولغتي أيضاً
يحطّ الظلام على عيني
كما تنوح عاشقة
على ساعد غريب
فيسكنها وينتشي البحر
أنا تبغ الراحلين
أنا سفرٌ... غرابي بشرّ بالمنايا
كل أمنياتي افتقدتها
وملكتك أنتِ
صار جسديك عبئاً على الأرض
جرحاً عميقاً في كتف الله
تابوتي لا يحتمل رداءة الصوت
ما زلت مناضلاً في اكتشاف الصخر
في البحث عن ضياع هادئ

بين نهديكِ

....

يرتفع صوت المآذن
لا يحتمل التابوت ضجري
على يمين المشييعين
قرب الحافلة
ثمة أمٌ تَلِّمُ ابنتها خبز الفراش
دون أن تعرف جسدها
أن تدرك غضب الموج

يساريُّ هو الموت
تراب قبري ينتفض... يكبر كتمثالٍ
كشبح
كامرأةٍ عارية
تخبئ في عنقها سلالاً من الكلمات
تخبئ شامةً بين الجداول
على ضفة العمر الأخرى
تطوي قدميها
تمدّ يدها تحت الشهادة
كل الأشباح تصاب بالسكون
تنزلني الريح على مهل... تضعني برفق
أتمدد فيك... وأبدأ كتابة حكايتي
على خطوط العرض في جسدي.. فيك
يرافقني القصيدُ

وتستمر الرواية راقصةً
ولا يتسع العالم الفقير
لحدود قبيري
والمهزلة.

حوارية مؤجلة

ترنوهرّة سوداء
قريباً من الحي الجنوبي لجرحنا
تقف قرب جدول من الوحل
تستحم الرائحة القذرة للطبول
بلمعان البندقية
من بريق عينيها يخرج قاتل
لا يجرؤ على الاقتراب من رائحة الريحان
يبدأ بالهذيان:
من غيري علمك الحياة؟
لولاى لكنت بلا جذر
ساعة حملت عقاربها في يد غريبة
وأمّ تنتظر الدمعة
تنتظر جنيناً للكفن
لا خوف يسكنك
ذرة ملح بين الزنزانة والمنفى
أرحتك من ثقل الجبال
من وليد يشمّ كفيك للحظة
عندما لا يقوى على البكاء
هيا... هيا انهض

اخرج من مديتي
قل أي شيء، ولو شتيمة
أو طعنة كلمة

تبسم شاهدة القبر
تهبّ رائحة الريحان
تملاً السماء
الضحية:
لا تأر عندي
طفلي خطّ على الجدران حكايتي
وأنت تماهيت مع الدماء والحديد
لا حياة معك ... لا تحية لظلك
سيهبّ الغبار من قبري
سيكتب شهادة ميلاد لموتك
غشاء بكارة لزوجتك الرخيصة
وأنت غير قادر
على الذكورة.
القاتل: منحتك ... أعطيتك .. وهبتك ...
الضحية:
توقف!
لو أنك قادر على الحياة للحظة
لما أهديتك
صفة القاتل.

المستأجر الجديد

في غرفة مجاورة
نمّت طحالب وأزهار مشبعة
بالعراك مع الجذر الصلب
تاجر دمشقي
أبى أن يستبدل بشرايين زوجته
خيوط حرير منمقة
تتعطش للاستئارة
في أرض غريبة
ذرات رمل تداعب وجدها
فتنزف دماً أبكم
يستذكر عوداً في حانة رخيصة
فكلما زاد رواد غانيتها
استبدت الرطوبة
بمساحات أخرى
من بيضاء فرجها
لتنغدو أكثر نقاءً
وعذرية

حكايا نسجت خيوط العنكبوت
جدران خشبية تألفت مع بعضها
فغدت مسرحاً رومانياً
يسخر دائماً من ابتذال الممثلين الغرباء
أحاول أن أعيد للزجاج بريقه
فيصير دمي أكثر تلوئاً
أترقب توهج النار في داخلي
متفائلاً في ذروة تخيلي واحتفائي
بانتصاري على كل من اضطهد قلبي
فتسحقني مياه النهر
وفي اليوم التالي أسير وحلاً
حدائي لا يزحزح نظره
عن عيني الصغيرتين
أمام تهكم تجار السوق
وأطفالهم
الذين خبؤوا أحلامهم في محفظة
للأصالة والنقود
أعود مسرعاً
أفتح باب قبري بهدوء
متحاشياً
أن يثير خوفاي القروي
رائحة أطعمتهم

على جبل الضجيج في القرية

تستغربني أُمي
يقتلها الصمت
فأحلف بأنه استكان بداخلي عنوة عني
تحتكمني لشجرة الصفصاف
ويلقى بي خارج شروال جدي
فأعود إليك أيها النهر العجوز
لأرمي كل ذاكرتي بداخلك
وأعود إلى كهفي
مسكوناً بعفوك وحقدك معاً
مليئاً بتعويذة جدتي
بصوتها الواقعي:
كن ميتاً تحتوك المقبرة
فتنفس دائماً
في أي مكان
تحت التراب فوقه بينه عليه
فسارعت بشتم مرأتي وكسر تنفسي
مطلقاً صرخة
أحييتني قتيلاً
فاستيقظ الحيوان في جسدي
لبس حذاءه وارتدى معطفاً
وذهب إلى عملي
بينما ظللت غارقاً
في الكتابة والخوف.

نشاز

كن من تريد
عاشر أصابعك حيناً
وازدري ذاكرتك
الوحد يكسو البحر
والبحر يكسو اللحم
الفضّ أنفاسك الأخيرة
ابتسم.. وغنّ للقطارات
لدخان البنادق
ظل يأتي من الداخل
يكبر أكثر
وأنت محفور على الصخر
ترقص بحرية الموج
اقتطع لسانك
ادفنه تحت السماء
عند قدميك ليس بعيداً عن
رأس الإله الغائب
في مرتفعات الحيرة والظلام.

بالقرب من دمشق

الموج في داخلك
الرأس لا يحمله الكتف
هنالك في الجنوب
أثارتها الشمس
فصرختِ
أصابعي
يكسوها الحنين فقط

الحقائب لا تتسع إلا للدموع
الرقص لغة
هو الحزن الأجل
ابتسامة عندما لا تقوين
على الوداع
فخصر الأنثى
قادر على الرعد أيضاً

لوحات دمشق على الجدران
«السقف يبكي أيضاً»
قالها طفل
كما لو أنه
يشم رائحة غسيل أمه للمرة الأولى
يرثي زوجة
أحبها...
أحبها على حبل الغسيل

وأنا أراقص ظلالك
أحتمل نزق صديقتك
الطفلة... الغراب
الذي يضع رأسه بين جناحيه
ويبكي بعيداً
ما ذنبي! ما ذنب النساء اللواتي أحبهن!
إن كان الوجد قد اختار لي
رجلاً...
حقلًا برائحة الخبز

أما أن للكلمة أن تنطق!
أما أن للرحم الخصب
أن يهمس
تسعة أشهر

آه منك أيها الأردن!
كم من المخيمات!
عندك
أحتاج إليها.

مخاض الروح

تعبت

استفاق في داخلي سفرٌ
أظافري تشتعل في مدفأةٍ
طحالب تنمو حول شفتي
بدأت حصاة تنهمر داخلي
أيا ليت... أتمنى... والكثير منها أيضاً... تثبت عجزني
تجعله كشجيرة تين يابسة في كروم النبيذ
غداً أو بعده بقليل
سيوصل بابٌ آخر في لغتي
ما عاد المسافر مسافراً
ما عادت الأجنة حلماً
لن ترسم الطفلة بعد اليوم
أَيُقتل الديك على صياحه؟!
أَيُعتقل الحمام لرأفته بخفة الريش؟
سأمزق هويتي كي لا أقتل
سأخفيها ببعض الضباب السوري

نقصُ بات يصيب الاحتمالات

نديم آخر بدأ يكسر كأسه
يمسك بحلمي... يعذبّه...
رأفة ببياض الطبيب
وتبقى شأمي وحيدة في رحم الليل
بين طرفي قطعة موسيقية
تاقت علاماتها بين الحشود
لتعود الطفلة إلى صمتها
إلى براءة أمّ تروي وجعها
بشوك يزداد صلابة في فلسطين
سرير الاحتضار الجميل

منفضة السجائر تتابع الفيضان
يسير دمي منها وإليها
لن تنتهي رثتي
فكل الشعراء يمقتون العرافات
يكرهون العجز في اللغات الساحرة
يا غابتي... لن تحيد رياحي عنك
لن يصيبني الملح إلا بأموالك
لن تنتهي النوارس عن تحليقها
في عنق البحر
لن أمتثل لفضب الأيام
فكما علمتني أنت
لا جنون بعد جنوني يغريك
ابتسامة طفلٍ ستمو في قصيدي الموحوعة

لا ولن يحيد عالمي عن خصرك
عن مركز الكون
حيث تجليات الروح
تنمو كبرعم
تحتل جسدك... تستبد بظلي
ليبقى اللامكان في داخلي
ملعباً لليأس
وكرهاً لضعف المغتصب.

عبيد اللغة

يا عشق
يا نرجسي الخطي
اقترب
اصنع من عبيدك لغة
منا
أنهاراً تأبى الركود على شفافنا
شغلتنا متاهات حقدك
مررت أمام أعيننا
ونحن نجهلك
كنت انتقام الحقيقة من نفسها
خيانة الاسم والمسمى
بحثنا عنك طويلاً في أعين الغرباء
في الكتب
على أطراف الطريق إلى روحنا
خلناك لحظات تسبق السرير
دفع الأيادي عند الرحيل
يا أيها النبي الخرافي
يكتبون عنك
يصدقونك

ثم ينكرون
خلقت الأساطير، وكذبتها
تسيرُ دمعاً
وتفريق باسماء كفتاة تأخرت عن حلمها
غاب الساعد الذي نامت عليه
فصارت واحدةً بحجم المساء
حنين ذاكرة مقفرة
يا عشق
أنت مثلنا، لا تصدق إلا نفسك
دع كلامي عنك
وامضِ مثلي في متاهات الكلام
علك تجد من لا يجهلك.

ارتبـاكـات أخـيرة

- 1 -

أحبك عارية تماماً
كالصحراء
دون ظلال
أو غيم.

- 2 -

أنا عاشق للمسافات
بين قدميك.

- 3 -

ثبّتي جفنيك قليلاً
مللت الخطأ في عدّ النجوم.

- 4 -

أراقب صورك كما لو أنني طفل صغير في آخر الشارع، يغمض عينيه
لحظة، فيشم رائحة الخبز.

- 5 -

أجمل النساء هي التي تحبك دون أن تدري، تتذكر الغيم أمامك
لتبتسم، عنقها مساحة أخرى لالتقاء السماء بالبحر.

- 6 -

كلما تكلمت العربية، تحسست خصرها.

- 7 -

وداعاً، قالتها ومضت إلى داخلي.

رصاصات طائشة

تعبت القبور من ساكنيها
ما أوحشنا!
ما أكثرنا نحن المقابر!
والشواهد في الذاكرة
تستحضر الكلمات
ينزح من نحبهم فجأة
ويأخذون حصتهم من الابتسامات
إياك أن تنبش الماضي!
إياك أن تنبش الماضي!
لن تجد سوى ابتسامة واحدة
هي ارتسام شفاهك
على جمجمة الآن

البلاد السعيدة
زارها جميع الأنبياء
البلاد الغنية
السخية
الطاعنة في اللغة
فاقت فصاحتها القرآن
وبقيت كوشم أخضر
الجدّة التي تعربش العشب على ساقها
لم تنفعها الحكايا القديمة
لم تسل نفسها عن القبور
عن الثغور
عن مقامات الموت البيطية
تلك البلاد اتسعت كظلّ رجلٍ
لا ملامح له
مبتسماً،
بيتعد بهدوء عن مصدر الضوء
لكنه، ما زال يدندن لحن أغنية
لا يفهم كلماتها، لكنه يرددها
«ملعونة بلاد الأنبياء»
موبوءة بجثث أبنائها

هنا

حيث اخترعت اللغة

ماتت!»

البلاد التي في داخلنا

أصغر من ابتسامه طفل جائع

أشد قسوة من حديد الحافلة

ذاك الحالم

دون أن يعرف شكل النافذة على يساره

جلس في مقعده

الرؤوس أمامه متشابهة

وكذلك الأقدام

يا صاح

البلاد التي تغوي ضحاياها

لا تعرف شكل أجسادهم

لم تدثر جوعهم يوماً

البلاد نفسها

أصغر مما سيرسمه الطفل على المقعد المهترئ أمامه

قبل أن يغضو

أو يموت.

أنا
ودمشق
وأنت
وذاكرتي أيضاً
نجلس سويةً
دون جدران
طفل لاجئٍ ينام على رصيف دمشق
يعبث بحصان طروادة
بريق عينيك
وهج القذيفة
ازدحام أنفاسنا
هكذا تموت المدن الجميلة
الطفل ذاته يتقل بين السيارات
لا يبيع الورود هذه المرة
ينتظر... فقط ينتظر
برتقالي... موت... أخضر
الجنة تنفخ في الصافرة
أهلاً بالسنة الجديدة
أهلاً بالسنة الجديدة!

الوقت الذي شارف على الانتهاء
خانتُه المسامعُ
الوجيفُ الشحيحُ صمَّ أذنيه عنكَ
وسرت نحو السماء
يا صاحبي عيناك غيم
والشفاه ارتباك الكلام
هو ميتٌ
وأنت كذلك
وأنا البردُ بينكما
للطين شكله والعيش فيه اختناقٌ مزمنٌ
وللريح مجازة: صعود روحك نحو الأعلى... نحو الأعلى
حيث يجتمعون في العيد، ليترحموا عليك بأحذيةٍ جديدةٍ
الأطفال يلعبون، والكل ينصرف إلى همومه
أديم الأرضِ جسدُكَ
والمدافع تدقُّ عالياً، عالياً
لِمَ كل هذا الرثاء؟!
لِمَ كل هذا الرثاء?!

صوت الأشياء الساكنة
هو من يحركك
استمع إليه جيداً
لا يختلف كثيراً عن دقات قلبك

رأيت العالم من خلال عيون لا أعرفها
منها، كانت تنبعث رائحة الحكايا
تعيد بحركاتها العفوية ضبط الزمن
العيون المغلقة
صور الاحتضار الطويل
نظرات القابلة
جدتي النائمة قرب المدفأة
الهرة التي كانت تفتش عن رائحة أصابع أمي
أصدرت ضجيجاً
فاستيقظ كل من في البيت
في المطبخ
وقفنا
والمدفأة نائمة في الغرفة المجاورة
نظرنا بعيني القطلة طويلاً
فلم نجد سوى
آلافٍ غيرنا
يقفون مثلنا
ويحدّقون.

أَسِيرٌ خَلْفِكَ دَائِمًا

هَكَذَا أَنَا

أَسِيرٌ

طوبى للموتى

قناعاتهم

لا

تتغير

أبدًا!

كل القصائد التي كتبتها لك تفوح منها رائحة العرق
كل القصائد كُسِرَت بالماء

لو أدركتَ البعيدَ لما كنتَ قريباً من نفسك
لولا الحلم، لحاصرتك غريزة السفر
لولا وحده
لبدأتَ كطفلٍ بترتيب حجارة قبرك بهدوء...
دون أي انطباع يُذكر ..

واكتبوا على شواهدهم ما كانت ستكتبه أناملهم من شعرٍ
ضعوا القصائد على أكتافكم
واطردوا الغرباء... أصحاب اللحى والبزات العسكرية
كفّنوهم بالورق الأبيض جيداً
المقابر في السلمية لها رائحة الخبز أيضاً.

أبي على النافذة يشتم أبناء الحي
أمي عارية على السرير
وأنا تحت السرير مع بنطال أبي
أعيد إلى جيبه ما تبقى
مما سرقتة البارحة.

وأنت ذاهبة أغلقي الباب خلفك جيداً
لا أريد أن أفقد حميمية الجدران أيضاً.

كلاعبِ الدمى
أقتل وحدتي
مثلهُ تماماً
أشفيح أصابعي مبكراً!

أشتاق ذاك الطفل الذي رمانى بحجر
أدمى وجهي
وبدأ بالبكاء.

وأنا في البار، وحيداً كزجاجة فارغة
«كن كالدمع صادقاً»
خافتاً... مثل الأضواء هنا
غاب ذاك الصوت
واختفت العيون.

كان يقف على قمة قاسيون وحيداً
يتأمل أضواء الطائرات البعيدة:
تحبني، لا تحبني، تحبني، لا تحبني
استيقظت المدينة كلها
ولم يتسنَّ له أن يعرف الحقيقة
لم يكن جندياً
ولم يتعب نفسه في معرفة الطائرة الوطنية من المعادية
رأى القذيفة على بعد سنتيمترات قليلة عن وجهه
وسَبَّح بعدئذ
مع المناديل المهملة في مجرى بردى.

وكانت بيضاء
لا أتذكر شكلها
تخطرُ في بالي
فأنظرُ إلى الأعلى فقط
كانت واضحةً إلى حد البكاء
فهي تُبصر حجم العناكب السائرة
نحو عنقي
وتتلمسها
فأغمو

كانت بيضاء
وأوضح من خساراتي كلها
ترى عشيقاتي أجمل مني
والملابس التي أرتديها أكثر حرارة من يدي
الارتباك يتملكها دائماً
لا تعرف كيف تعبّر عن مشاعرها
كالذئبة المهزومة تحتضن أولادها
وتتمتم في غرفتها طوال الليل
بيضاء

أجمل من الحرب ومن الثورة
لم تحفظ كلام الله
لكنها صوته
رائحته
كلما نظرتُ إلى أعلى
وجدتها
أمي!

عرفتُ عدد الشهداء دون أن أعرف حجم أحلامهم
اتسعت خياناتي أكثر
مخيلتي الآن
تصلحُ
براداً
للجثث!

صدر من سلسلة «شهادات سورية»، بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدّد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.

”هل يحق لي أن أبتسم مثلكم لخشخشة
المفاتيح الحديدية؟“
يتلاشى الفضاء في الزنزانة المنفردة لينفتح
على عالم فسيح من الخيالات. أي شيء
ناقل يكتسب قيمة أسطورية، أي حركة
تصبح حكاية. ومن المفارقة بين الأفق
المنغلق والخيال المنفتح، بين تفاهة الأشياء
وعظمة الحلم تلد الشاعرية.
هذه الشهادة نموذج بديع عن تلك الشاعرية
الوليدة في لحظة فريدة من حياة شاب من
أولئك الذين ”لا يكتبون تاريخهم (...) بل
يرتلونه“.